دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

العمــــل الروحي

الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

العمل الروحي

للأب متى المسكين

كتاب: العمل الروحي
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: ١٩٦٥. الطبعة الثانية: ١٩٧٨.
إعادة الطبعة الثانية: ١٩٧٩. الطبعة الثالثة: ١٩٨٣.
مطبعة دير القديس أنبا مقار ــ وادي النطرون.
ص. ب ٢٧٨٠ القاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٤٥٦١ / ٨٣
رقم الإيداع الدولي: ٣ ــ ٠٠٢ ــ ٤٤٨ ــ ٩٧٧

— ١ —

العمل الروحي

***

إن الطريق كله يقوم على أساس يلزم أن يكون واضحاً أمام المبتدئين وعند السائرين حتى النهاية، وهو: **وجود محبة صادقة ملتهبة نحو الله، وإيمان عار من الإعتماد على شيء إلا الله وحده، مع تسليم هادىء لمشيئة الله، واستعداد مستمر لإنكار الذات.** هذا الأساس هو في الواقع خلاصة وصايا الرب، هو الإنجيل مهيأ للسلوك.

هذه الوصايا الأربع ليست شروطاً يجب توفرها كاملة حتى نبدأ الطريق، ولكنها يلزم أن تكون موجودة بصورة ما في النفس وأن تكون موضع اشتياق داخل الإنسان. غير أن هذا الأساس لا يكفي في ذاته أن يبني النفس و يضمن لها السير دون خطر، كما يستحيل أن يوصل إلى غاية الطريق، أي بلوغ الملكوت والإتحاد بالله.

إذن فوق الأساس لابد من عمل، عمل من نوع الأساس وامتداد له، عمل يتم في الإنسان بواسطة الله، عمل يتم بالتجارب والإختبارات والآلام المتعددة داخل الإنسان وخارجه، عمل يتم بممارسة التوبة على طول الطريق مع إخضاع الذات وتسليم المشيئة.

بهذا العمل تختبر قوة الأساس واحتماله و يزداد رسوخه، ويمتد و ينمو. وهل

ننسى المسيح كيف عبّر عن الحب الذي فيه بقبول الآلام وكيف «تعلّم الطاعة مما تألم به» (عب٥: ٨)؟ وكيف أطاع حتى الموت (في٢: ٨)؟ وكيف اختبر تسليمه الكامل بتخلية مُرّة على الصليب «إلهي إلهي لماذا تركتني» (متى٢٧: ٤٦)؟ وكيف مارس إنكار الذات في آلام جثسيماني الإرادية «لتكن لا إرادتى بل إرادتك» (لو٢٢: ٤٢)؟ وفي النهاية «قد أُكمل.» (يو١٩: ٣٠)

واضح من حياة المسيح أنه لم يكن يسعى على الأرض ليجلس عن يمين العظمة بل أن يكمّل مشيئة أبيه. لذلك ليس من المفروض أن نضع أمام أعيننا أن نحصل على مواهب وعطايا الله ونحن على الطريق، حتى المواهب البسيطة لا يلزم أن تكون موضع إلحاح منا في الصلاة؛ ولكن يكفي أن نكمل مشيئة الله بكل عزم ونتحرك حسب إرادته بكل خضوع وشكر في أي موقف يضعنا فيه وفي أية حالة يختارها لنا، واثقين أننا تحت عنايته مهما كانت الحالة. كل ما يلزم في عملنا أن نشتاق جداً إلى الكمال المسيحي الذي يرضي الله ولكن كما يرغبه الله و بالطريقة التي يختارها هو.

وليس الكمال شيئاً نرجوه في المستقبل الغامض، ولكنه حاجة النفس في اللحظة التي نعيشها الآن، لأننا الآن نحن نملك أنفسنا ونستطيع أن نهبها له، أما الغد فالله يملكه كليةً ولا نملك نحن منه شيئاً حتى نعطيه له. الذي يظن أنه يستطيع أن يهب مستقبله لله هو كمن يعطي من رصيد وهمي. المستقبل لا نعرف عنه شيئاً، وهو ليس في دائرة إمكانياتنا ولا نستطيع أن نتصرف فيه روحياً. إن اللحظة التي نعيشها الآن هي كل ما نملك في الوجود.

الآن نحن نعرف ما في أنفسنا ونتبين بوضوح ما فينا من عيوب وما فينا من إمكانيات معطلة. كذلك نستطيع أن نلمح على ضوء ما فينا ما هي مشيئة الله تجاه ما يجب أن نعمله. الكمال المسيحي واضح لنا الآن في ضوء الواقع الذي نحسه لأنه

موجود فينا وها نحن نراه إذا أردنا، نراه بوضوح كما نرى السماء الآن فوقنا والأرض من تحتنا. ولكن إذا التفتنا إلى الوراء لننظر إلى الماضي نراه قد غاب عنا وفلت منا، كالريح التي تمر علينا ثم تغادرنا ولا نستطيع أن نلاحقها ولا نعرف إلى أين ذهبت. وإذا نظرناه بالتصور، نخور في أنفسنا لأننا نواجه إخفاقاً وتقصيراً. أما إذا حاولنا رؤية المستقبل، فنحن نقحم أنفسنا في فعل من أفعال التنبؤ يحوطه ضباب فكري وعتمة تحجز الرؤيا لا نتبين منها صورة الكمال الذي يوده الله لنا.

وهكذا نحن لا نرجو إلا الواقع المهيأ أمامنا للعمل الواضح، فإذا فقدنا رؤية ما فينا الآن وتراخينا عن أن نعمل شيئاً مناسباً، تسربت منا الحياة كلها.

ولكن أعمالنا في حد ذاتها، مهما كان فيها من حب وإيمان وإنكار ذات وتسليم مشيئة، لا توصلنا إلى حالة قداسة، ولا تؤهلنا لأية مواهب، ولا حتى تستطيع أن تدخلنا في حالة اطمئنان كلي وسلام.

إذن، مَنْ ذا الذي يعطي هذه الأمور؟ الله... الله الذي يظل يقود النفس الطيِّعة في طرق صعبة، واختبارات، وظلمة إثر ظلمة، وحيرة، وأعمال لا هدف لها حسب الظاهر، حتى يؤهلها بواسطة مصادمتها للواقع و بواسطة تقبُّلها للخبرات المؤلمة ومرورها في مأساة العالم ومحنة الأشرار، نعم، يؤهلها بهذا إلى مواهب غير مرتقبة وقامة روحية عالية.

إن مواهب الله ليست كائنة من أيدي الملائكة ولا محجوزة في طبقات السموات العليا، إن مواهب الله كائنة في المصادمات اليومية التي نعانيها مع الجسد والعالم والناس، ولكن ليست المصادمات وحدها تنشيء مواهب، إنما هو الله الذي من أجله نقف ضد أخطاء الجسد ونصادم الباطل الذي في العالم والشر الذي في الناس.

فواهب الإستنارة الروحية لا تنبع إلا من عتمة الظلمة التي تجوزها النفس في حيرة ودهشة من اختباراتها مع الواقع الذي تختبىء فيه الحقيقة.

والفرح الحقيقي وطول الأناة مصدرهما الخفي الآلام والأحزان التي يجزع منها الإنسان في البدء، ولكنه بالصبر يكتشف أنها مجرد غلالة كاذبة تحتها حقيقة ثابتة خالدة تشيع في النفس مسرة إلهية غير كاذبة. والمحبة الإلهية الباسمة المتسعة لا يذوقها الإنسان إلا بعد أن تنعصر نفسه في معصرة عداوة الناس و بغضهم وكيدهم.

ولكن الظلمة لا تنشىء نوراً من ذاتها ولا الحزن ينشىء فرحاً، ولا البغضة تنشىء محبة؛ كما أن الطين لا يُخرج زرعاً من ذاته إذ يلزم أن توضع فيه البذرة بإحكام وعناية، كذلك ليس كل بذرة تُزرع في الطين تنشىء زرعاً إلا ما كان فيها حياة!

هكذا أيضاً يلزم أن تكون النفس حية وفي حالة تسليم كلي لله حتى تضعها اليد الرحيمة في طين التجارب بإحكام و بالوضع المناسب حتى تستفيد من الظلام والحزن والضيقة، فتسري فيها رعشة الحياة الأبدية وتتشكل فيها صفات الخلود: محبة فرح سلام طول أناة... (غل ٥: ٢٢)

وهكذا نجد أن الإنسان السائر على الطريق مُطالَب بأن يكون في حالة **يقظة مستمرة** للواقع الذي يعيش فيه، وعينه ناظرة إلى ما في أعماق نفسه من حقيقة حاضرة تحتاج إلى عمل واجتهاد، **وأن يكون مستعداً لمواجهة كل الظروف المعاكسة وكل المصادمات** بإيجابية غير متهربة من الواقع الخطر، مستفيداً من كل ما يحدث له أو فيه، **واضعاً الله معه في كل موضع** مسلّماً المشيئة له بالتمام بدون قلق أو ارتباك مهما كانت الظروف ومهما طالت التجربة دون حيرة وتساؤل، دون لهفة لمعرفة السبب ولا تسرُّع لمعرفة النتيجة...

— ٢ —

يقظة النفس وبدء العمل الروحي

***

من كثرة انشغال النفس بالأمور الحسية والأعمال والإهتمامات المتعلقة بالحوادث الزمنية اليومية، تفقد النفس قدرتها على تمييز ذاتها منفصلة عن الجسد ولا تدرك نفسها إلا ملتحمة بالأحاسيس الجسدية. وهي مهما بلغت من محاولات لتصور نفسها منفصلة عن الجسد، فهي إنما تبلغ فقط إلى درجة رؤية ذاتها من خلال تشكيلات وتحركات العقل التي لا تخلو أيضاً من مسحة الجسديات وعنصر الحسيات. هذا يجعل النفس تتوهم أن دنيا الإنسان هي كل ما يمكن الإحساس به فقط، ويتعذر عليها جداً أن تتحقق الأمور الخالدة خلواً من تدخل الزمنيات والجسديات؛ وكأنما ملكوت السموات يتأتى عن طريق الأكل والشرب ولا تَمَسّ ولا تَذُقْ.

فإذا عرض للنفس أن تقف من الصلاة، فإنها تكون فاقدة كل القدرة على استيضاح المفهومات الروحية فهماً واقعياً، وبالتالي يتعذر قيامها بالعمل الروحي، بمعناه الروحي! مثل هذه النفس يلزمها في الأساس وقبل تمرنها على الصلاة أو محاولة دخولها في المجال الروحي المحض أن تتعلم أولاً كيف تهدأ إلى نفسها وتكف عن الإهتمام بالجسديات، وأن تحاول بكل جهد أن تتخلص من طغيان الجسد والحواس. وهذا لا يكلفها إطلاقاً أن تكفّ عن الأعمال والواجبات الجسدية أو أن تهمل مطالب الحياة، ولكن أن تستقل النفس بإمكانياتها وأفكارها ومشاعرها

ومطالبها الإلهية عن إمكانيات الجسد وأفكاره وحواسه ومطالبه الزمنية؛ وتبدأ تتعرف على اختصاصها ومواهبها وفيما جُعلت له، وتمارس قدراتها الخاصة دون أي تعطيل فيما يختص بشئون الجسد. بهذا يبدأ في النفس **الإستعداد للعمل الروحي.**

ولكن لا تستطيع النفس أن تبدأ العمل الروحي إلا إذا اكتسبت العين الروحية، والأذن الروحية، واللسان الروحي، واستضاءت بنور المعرفة المتولدة من الحق كقول الرب.

وهذا لا يتأتى بالبحث ولا بكثرة القراءة ولا بالتعلم ولا بالمحاجاة والمناقشة مثلما ينمو العقل أو مثلما تتمهر القدرات الجسدية والفنية المعتمدة على الحواس؛ بل على النقيض، فإن النفس لكي تتعلم الروحيات وتتهيأ لفهم الخلود وتبدأ بمباشرة العمل الروحي يلزم تجريدها من كل الوسائل الحسية المكتسبة من الجسد بحيث تكف النفس عن استخدام المهارة الفكرية والحذق التصوري والإعتماد على قدرة الإفصاح والتعبير وفلسفة الشرح والمخاطبة والتأثير التي يعبّر عنها الإنجيل جميعاً بكلمة: «حكمة ... هذا الدهر» (١ كو٢ : ٦) إذ يلزم للنفس كي تبدأ بالعمل الروحي أن تفهم الروحيات وتحسها بإمكانياتها الخاصة. وإمكانيات النفس روحية! وأما الفهم الروحي وأما العمل الروحي ــ ممثّلاً في الصليب ــ فهما جهالة عند العالم... وهذا يعني ما يقوله الكتاب بوضوح: «إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر **فليصر جاهلاً لكي يصير حكيماً!**» (١ كو٣ : ١٨) أي يلزم التخلي عن كل حكمة العالم التي هي في مضمونها زمنية حسية جسدية.

وإلى أن تبدأ النفس بمباشرة العمل الروحي وتذوقه تظل تستخدم في الصلاة ومخاطبة الله لغة البشر والوسائل التي تستخدمها مع الناس من شرح المشاعر وتنميق الأقوال وخلق الإعتذارات.

ولكن في اللحظة التي تستطيع فيها النفس أن تكف عن استخدام هذه الوسائل تبدأ النفس تتكلم مع الله بوسائلها الخاصة بغير لسان و بغير لغة الناس و بلا تكلف مصطنع من عواطف وتأثيرات. وشيئاً فشيئاً تنجح النفس في التعبير عن مشاعرها العميقة لله وخواطرها المزدحمة نحوه ونحو الأبديات بما لا يمكن للغة البشر، مهما بلغت من الدقة والإتساع والحكمة، أن تلتقطه أو توضحه أو تعبّر عنه.

بهذه القدرات الجديدة تستطيع النفس أن تقدم حبا للمسيح لا بالكلام ولكن بفعل قلبي، بحركة النفس الداخلية، بعمل روحي باطني. أي تشرح المحبة بالمحبة، والخضوع بالخضوع، والتسليم بالتسليم، هذا هو العمل الروحي الخالي من كل تدخل جسدي.

وعندما تكون النفس قد استيقظت إلى ذاتها و بدأت تباشر عملها الروحي الداخلي، تستطيع حينئذ أن تدرك الأمور الروحية ومعانيها ومفهوماتها، وتستطيع أن تتعرف على الحياة الأبدية والخلود بدون تصورات جسدية و بدون الإعتماد على الحواس و بدون تدخل الوسائل البشرية «ما لم ترَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال إنسان ــ كلمات لا يُنطق بها ولا يسوغ لإنسان أن يتكلم بها ــ أعلنه الله لنا نحن بروحه» (١ كو٢: ٩و١٠، ٢ كو١٢: ٤)

بهذه المعرفة الروحية الخالصة الخالية من شوائب الفكر الجسدي وانفعالات الحواس المربكة تبتدىء النفس تدرك الحق كأنها فيه وتدرك الله منه.

أما لكي تثبت النفس في الحق والله فلا يتم بالجهد الجسدي ولا بذبح الحواس لو أمكن، وإنما بالخضوع المستمر لله ودوام يقظة القلب للعمل الروحي الذي يؤهلها لتكميل المعرفة، هذا الكلام ليس للمتعلمين بل للإنسان كإنسان في حد ذاته سيان إن كان متعلماً بكل علم أو أمياً لا يتقن القراءة والكتابة. فقط يلزم للمتعلم أن

يـصير جاهـلاً لأن «الله استحسن أن يخلّص المؤمنين بجهالة الكرازة» (١ كو١ : ٢١)

والنفس التي بلغت إلى معرفة ذاتها أو مارست العمل الداخلي بحركة القلب بعبارة صادقة، لابد تدفعها المحبة والحرارة الداخلية لتكميل كل نشاط خارجي، كأعمال التقوى والفضيلة بكل أنواعها بمؤازرة الروح. هذا النشاط الخارجي الذي يبدو كأعمال جسدية إنما هو في هذه الحالة **امتداد للعمل الروحي الباطني وبالتالي هو عمل روحي أيضاً.**

أما النشاط الخارجي إذا لم يكن منبعثاً من دوافع روحية خالصة وعِشْرة صادقة مع الحق والله، فإنه يكون قليل النفع. ولا نريد أن نقول إنه لا يساوي شيئاً.

والعلامة التي تُثبت أن الأعمال المعمولة، سواء كانت خدمات أو عبادة أو تقوى أو فضيلة أو نسكاً أو أي عمل آخر، منبعثة حقاً من الداخل ومصدرها روحي محض، هي أن تكون هذه الأعمال جميعاً معمولة لا عن اضطرار أو تغصُّب أو بضيق وتململ إنما عن فرح ومسرة وبحرارة وغيرة واتساع. لأن المحبة تكون هي المصدر الصالح الذي تنبعث منه الدوافع! «الإنسان الصالح من الكنز الصالح في القلب يخرج الصالحات.» (متى ١٢ : ٣٥)

المحبة هي كنز الإنسان الصالح التي تلهم النفس الخدمة والعبادة والفضيلة والنسك وكل ما هو صالح! حيث لا يكون قلق ولا اضطراب بالنتائج، لأن العمل يكون معمولاً كمشيئة الله بدافع المحبة إيفاءً لدين المحبة: «أما الذي يعمل فلا تُحسب له الأجرة على سبيل نعمةٍ بل على سبيل دَيْنٍ.» (رو٤ : ٤)

خطر أن يكون مصدر أعمالنا وخدماتنا وعبادتنا وممارستنا للفضائل هو رغبة

لبلوغ شيء أو كمحاولات لإكتساب شيء؛ لأن ذلك يجعل النفس تنحصر في هذه الأعمال من أجل نفسها، وتهتم بها لأجل ذاتها، وتستحسنها وتفرح بها بقدر ما تنتفع بها؛ فتزداد النفس إعجاباً بذاتها بقدر ما تنجح في ممارساتها، وتعتدُّ بقدراتها بقدر ما تتشدد في عهودها، وتترفَّع عن غيرها بقدر ما تدقق في قوانينها. و بالنهاية تتضخم الذات وتكبر وتنتفخ حتى بممارسة الإتضاع.

هنا عندنا جملة تصلح أن نسميها: **جملة النجاة!**

[يلزم أن يكون العمل من الله لله]

أو كما يقول الكتاب: «هاأنذا أجيء لأفعل مشيئتك ياالله» (عب ١٠: ٩)... هكذا عمل المسيح وهكذا يعمل الملائكة وكل جند السماء، وهكذا عمل الآباء والأنبياء والرسل بعيداً بعيداً عن إرضاء الذات أو نفعها... **هذا هو العمل الروحي.**



ـ ٣ ـ

راحــة

***

الراحة الحقيقية للإنسان الروحي السائر على الطريق الضيق هي أن لا يكون في حياته فراغ.

الراحة الجسدية مربوطة بالبعد الزماني فهي بمثابة توقيف الساعة الزمنية والإستغراق فيما يشبه النوم. ولكن ما أخدعها راحة، لأن الزمن لا يمكن أن يتوقف، فهو يَسْتَرِقُ، ويمر من وراء وعي الإنسان خلسة، فتنحدر الساعات والأيام والشهور والسنين إلى هاوية الموت أو اللاوجود. و يستيقظ ضمير الإنسان فجأة فيجد أن الزمن قد تعاهد مع الموت والهاوية ضده، وأن فرصة الخلود والحياة الأبدية قد صارت أضعف مما كانت!

الزمن يسير باتزان لا يهتز وقانون لا ينفلت، فيكوِّن داخل الإنسان أكواماً منسقة من الحوادث الفسيولوچية والسيكولوچية هي عبارة عن ماضٍ متضخم، يزداد كل يوم تضخماً ويحمله الإنسان أينما سار، ليتدخل في كل تصرفه و يشكل مزاجه وعمله وكل حركاته. والواقع الذي لا مناص منه هو أن الإنسان **تاريخ متكدس** من صنع الأيام يشكل بالنهاية قامته البشرية، لا من حيث الطول الجسدي فحسب، بل ومن حيث الطول الزمني الذي يحوي معنى غنى الشخصية وعمقها بقياس الحوادث والتصرف إزاءها.

ولكن يوجد داخل الإنسان **بُعدٌ** آخر فوق الزمان ومنفصل عنه، لا يتبع التغيير الفسيولوچي ولا يخضع للتأثير السيكولوچي، فهو يكاد يكون بمعزل عن تراب الأرض وكل ما يُستحدث منه أو يؤول إليه. هذا البُعد اللازمني لا يتبع الحركة فهو ليس من هذا العالم، لذلك ليست له وحدات قياسية وإنما يخضع لتدبير الله مباشرة: هذا هو **قانون الخلود أو الحياة الأبدية.**

وكما أن الإنسان حينما يسير بمقتضى البُعد الزماني يشعر بالساعة واليوم و يلتحم بالأرض والسماء وكل ما فيها، ويخضع لقانون الحركة والتغيير الذي ينتهي حتماً بالعدم؛ كذلك أيضاً حينما يتبع قانون الخلود فإنه يشعر باللانهائية و بالوجود الكلي و بالحياة الأبدية، و يلتحم بالحق و يتحول إليه، وهذا هو المعبَّر عنه في اللاهوت «بالشركة في الطبيعة الإلهية» (راجع ٢بط ١: ٤).

هذان البُعدان، أي البُعد الزمني والبُعد اللازمني، يسيران جنباً إلى جنب في داخل الإنسان، والإنسان مدعو أن يسير عليهما معاً، يُخضع الزمن و يلاحق الخلود!

وكلما أسرع الإنسان في المسير على واحد منهما كلما تقلّص الثاني، وظهر وكأنه يتقهقر مسرعاً إلى خلف.

فالإلتحام بالأرض والأشياء التي عليها إذا بلغ درجة العشق والتلذذ أو الهم والقلق فهذا هو الإسراع في المسير على البعد الزمني، و بالتالي هو خضوع التزامي لقانون البلى والعدم الذي يتبع الزمن.

والإلتحام بالحق ـــ والحق هو الله ـــ والإنشغال بالمحبة و بالحياة الأبدية حتى إلى بذل الذات وتسليم النفس، فهذا هو الإسراع في المسير على البعد اللازمني، و بالتالي

هو اتّباع لقانون الخلود الذي يحكمه الله .

الـذي يلـتزم بالبعد الزمني و يكتفي بالركض فيه يواجه فراغاً باطنياً ، لأن الحياة الأبدية تفرُّ من أعماقه أو تتجمد فيه وكأنها عدو يسكنه !

أمـا الـذي يـتـبع البعد الإلهي فإنه يحس بالزمن يفر من كيانه و يتوارى خلفه ، كإنسان مسافر في قطار يرى الأعمدة والأشجار وهي تهرب مذعورة وتصغر في ذاتها ، وتـصـغـر حتى تـتلاشى من الوجود وهو ثابت في مكانه راضٍ عن هذا الإسراع وهذا الـزوال ؛ هـكـذا الـعـالم كـلـه وكـل الأشياء التي فيه تنطوي وتتصاغر وتختفي خلف السائر في طريق الحياة الأبدية .

الإنسان البعيد عن الله يواجه إما الشعور بالتوقف الزمني ، أو بعدم الإحساس به لأنـه يكون مغموراً فيه ! وتوقُّف الزمن فراغ قاتل للنفس التي خُلقت لتعْبُر وتسير فوق الـزمـان . كـذلـك فـالإنـسـان الـذي يلتحم بالعالم يتولد فيه إحساس بتضخم العالم وأهمـيـتـه وعظمة الأشياء التي فيه . لأن الإنسان بحد ذاته عظيم في خلقته وتكوينه ، لـذلـك فكل ما يلتحم به الإنسان يصير في إحساسه واعتباره عظيماً كنوع من خداع الرؤيا ، وهذا هو سر تأليه الكون والمادة عند الطبيعيين والشيوعيين .

أمـا الإنـسـان الملـتـصق بالحق فإنه في مروقه نحو الأبدية بإحساس فائق للزمان وخارج عنه ، يشعر وكأنما الأيام والسنين تتصاغر في نظره وتفقد قيمتها كلما ازدادت سـرعتها فـتـخـلـق فـيـه شعوراً بالرضى ، لأن سرعتها العكسية تزيده شعوراً بامتداده وقربه من الغاية الخالدة .

كـذلـك فـإن الإنـسـان الـعائش في الله ينفصل العالم من كيانه ، فتبدو الأشياء والحوادث التي في العالم على حقيقتها تافهة كلِعْب الأطفال ومنازعاتهم .

توجد راحة حقيقية وراحة كاذبة...

التوقف بمضمون البعد الزمني، أي أن يتعطل الإنسان عن أداء بعض الأعمال لبعض الوقت أو كل الوقت ويجلس ساكتاً منفرداً، هذا لا ينشيء راحة حقيقية ولكنه يُدخل الإنسان في الفراغ الزمني المخيف. لأنه حتى في سكوت الإنسان المؤقت عن العمل أو في سكوته الدائم لا يمكن أن يتخلص من حركة الزمان إذ يصبح الإنسان وكأنما يسير في مكانه! فيزداد تبرماً من الزمان الذي يصير كقوة ضاغطة تضغط عليه من كل جانب.

الإنسان لا يستطيع أن يتخلص من الزمان إلا إذا دخل أعماق نفسه والتصق بالحق والحياة الأبدية، أي إذا تمسك بالبعد اللازمني وآمن بالخلود.

الراحة الحقيقية يستحيل أن توجد في التوقف عن العمل الجسدي، لأن الطبيعة وهي مستعبدة للزمان مستعدة أن تنتقم من كل مخلوق حي يتجاسر و يتوقف عن خدمتها، إلا إذا كان هذا التوقف من قبيل الإستراحة لإستجماع القوى لعودة الخدمة والعمل بصورة أوفر وأنشط!

الزمن دائماً ضد السكون!...

والطبيعة تحرِّم الراحة — في حد ذاتها —!

الراحة الحقيقية، إذن، يلزم أن يكون في مضمونها لا التوقف عن العمل وإنما حلٌّ لمشكلة الزمان والخروج من ورطته، وارتقاءٌ فوق منهج الطبيعة واضطرارها.

هكذا تبدو الراحة والسكون بالنسبة للإنسان واضحة أشد الوضوح في المسير بمقتضى البعد اللازمني، أي بالدخول في الحياة الأبدية والإلتصاق بالله حيث تكون الراحة لا في الكفِّ عن العمل بأي نوع، وإنما بعدم الإلتحام به.

وحيث يكون السكون لا بتوقيف الساعة الزمنية من الشعور وإنما بالإرتفاع فوق الزمان.

الإنسان معرَّض دائماً، حتى والروحيون أيضاً، إلى البحث عن الراحة. هذا الميل الشديد إلى الراحة يعود إلى ثقل نير العالم (الزمن) وضعف الجسد (الحركة). هذا جعل الإنسان مضطراً إلى التماس الراحة من أقصر طريق أي بالهروب من الزمن والهروب من الحركة.

المسيح ــ تبارك آسمه ــ كان يدرك هذا الشعور في الإنسان، لذلك دعاه للراحة الحقيقية بأن يحمل نيره الخاص مؤكداً أن نيره هيِّن وحمله خفيف، لا لأنه يقوم على أساس الكف عن العمل المادي أو الإلتجاء إلى السكون الظاهري، ولكن على أساس الدخول في الحياة الأبدية أي بالإرتفاع فوق الزمان.
والسير نحو الحياة الأبدية لا ينفي الزمن ولا يستغني عن الحركة قط، ولكنه يستخدمهما كما يستخدم الإنسان درجات السلم للصعود. إذن، على كل حال لا يزال أمامنا جهد وحركة!

ولكن في وعد الرب بالراحة: «فتجدوا راحة لنفوسكم» (متى ١١: ٢٩) مضمون سري وعجيب قائم في معنى «النير»، لأن النير ــ أي النافْ ــ يشير إلى زمالة الرب لنا في المسير لأن النير لا يحمله واحد وإنما يوضع على رقبتين؛ ومعروف لدى الذين يحرثون بالمحراث أنه إذا تزاملت بقرة شديدة مع بقرة ضعيفة فثقل المحراث كله ينصبُّ على الأقوى!

يا للسر المبارك! إن في زمالة الرب لنا راحة مؤكدة، ولكنها دعوة منه لا إجتراءً منا، حتى إن الجهد القليل الذي تبقى علينا يحمله هو عنا.
أنظروا ما أطيب الرب!

ـ ما هو العمل الروحي؟

ـ أي طريق ترجوه النفس السائرة في طريق الله؟

ـ ما هي أصول الجهاد ضد الذات؟

ـ ما هي الراحة الحقيقية والراحة الكاذبة؟

في هذا الكتيب الذي بين يديك ستجد فرصة ثمينة لإستكشاف حقائق اختبارية جديدة عن الطريق الروحي، وعن عمل النفس، وأصول جهادها أثناء المسير.

